العقل والعقلانية في الفكر الإسلامى
[(الطهطهاوى ، الأفغانى ، محمد عبده) نموذجاً]

المقدمة

تعد مسألة العقل والعقلانية من المسائل الهامة التي صاغها القرآن الكريم باعتبارها منهجية معرفية للمجتمع الإسلامي كافة، سواء بالنسبة إلى الإنسان المسلم نفسه في علاقته بالله سبحانه وتعالى، أوفي علاقته بالإنسان الآخر، أو في علاقته بالعالم. فما كان من الممكن أن تزدهر الحضارة الإسلامية إلا بالاعتماد على هذه المنهجية الجديدة في صياغة النظام المعرفي العقلاني، ذلك النظام القائم على الأسس الدينية الإسلامية من ناحية، والحوار والتفاعل مع الحضارات الأخرى من ناحية أخرى. وقد ظلت هذه المنهجية المعرفية الجديدة على جدل وخطاب العقل الإسلامي لفترة طويلة، بشكل جعله خطاباً فاعلاً ومبدعاً في مختلف المجالات الدينية أو الفلسفية أو العلمية أو الاقتصادية أو الاجتماعية وغيرها.

ومن هنا بدأ التفكير في دراسة العقلانية النقدية Critical Rationalism باعتبارها المحور الرئيسي الذي ننطلق منه لتأسيس إستراتيجية معرفية للفكر الإسلامي المعاصر. ولكن هذه الإستراتيجية وصياغتها لابد أن يتم بشرط الاستفادة من التراكم المعرفي للفكر الإسلامي في تاريخه القديم والحديث، ومن المتغيرات والتحولات العالمية التي حدثت في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين باعتبارها تحدياً معرفياً مؤثراً في تشكيل الملامح الأساسية لعصر العمولة أو القرن الحادي والعشرين[1].

وعلى هذا فما الموقف – إذن – من التراث الإسلامي والمعرفى التى أنتجها العقل الإسلامي على مر العصور ،سواء كانت قديمة أم حديثة؟

وهل تمكن هذا العقل من مواكبة المستجدات والتحديات التي عاصرته؟ وهل تجاوز هذا العقل النظام المعرفي العقلاني التقليدي وأرسى نظام معرفي عقلانى جديد، يستطيع توظيف هذه المستجدات والتحديات لصالح المجتمع العربي الإسلامي؟ أم أن العقل الإسلامي في أزمة؟ وما هى أثرا هذه الأزمة وحدودها؟ وكيف يتسنى لنا تجاوز هذه الأزمة؟

وأخيراً فإن هذه الإستراتيجية المعرفية التي يتمحور حولها هذا البحث تتخذ من المنهج التحليلي النقدي المقارن أساساً لها، كما تتخذ أيضاً من المنهج التاريخي منطلقاً أساسياً للتواصل والاستمرارية مع النتاج الفكري العربي الإسلامي قديماً وحديثاً . ويتكون هذا البحث من مبحثين رئيسيين هما: أولاً العقل والعقلانية في الفكر الإسلامي، حيث نتطرف فيه إلى مسألة العقل والعقلانية الإسلامية في القرآن الكريم . أما المبحث الثاني من هذا البحث فسوف نناقش فيه مسألة العقل والعقلانية في الفكر الإسلامي الحديث. ومن خلاله تتطرق على توضيح أراء بعض فلاسفة الإسلام في هذا الجانب كما توضح فيه أيضاً الفكر الإسلامي خلال مرحلة النهضة العربية التي كان يعتمد فيها على العقل اعتماداً كلياً في حل كثيراً من القضاياً التي طرحة عليه في المجتمع العربي آنذاك. وفي نهاية هذا

---

(١) عباس محمد سليمان، العقلانية النقدية كاستراتيجية معرفية للفكر الإسلامي في عصر العولمة، الطبعة الأولى، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ٢٠٠٢م ، ص٩.

البحث توصلنا إلى خاتمة وضحنا فيها ما توصلنا إليه من خلال بحثنا هذا من استنتاجات وتوصيات تفيد في معرفة الكثير من الغموض في هذا الجانب.

والله أسأل السداد والتوفيق

أولاً: العقل والعقلانية في القرآن الكريم

لما كانت معجزة الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم معجزة عقلية وعقلانية ، فقد بدأ تقدير العقل منذ الوهلة الأولى؛ حيث قال تعالى: ﴿ما ضل صاحبكم وما غوى﴾ (سورة النجم، الآية ٢)؛ أي ما ضل محمد صلى الله عليه وسلم بعقله عن طريق الهدى؛ فإن الإسلام حينما خاطب الآخرين دعاهم على تقدير صاحب الدعوة لأن عقله لم ينحرف عن طريق الحق. ثم بدأ الانطلاق إلى المسلمين جميعاً، فقال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ (سورة محمد، الآية ٢٤) وكيف يكون التدبر إلا بالعقل الذي يعد وعاء كل معرفة، وما الذي يميز بين أنواع الإشارات أو الأفعال التي تنقلها الحواس. بل ربط الله عز وجل بين قوة العقل وإحساس القلب كما في الآية السابقة[١].

وقد أكد القرآن الكريم في تسع وأربعين آية أهمية العقل، وبرهن لنا أن نجاح الإنسان في كل مجال من مجالات الحياة لا يمكن أن يتحقق إلا بقيادة العقل.

وقد بين لنا القرآن الكريم أحكام تصرفات الإنسان من حيث المشروعية وعدمها على أساس تحويل العقل البشري بالتشريع وتنظيم الحياة[٢] ومن هنا فإن الدعوة للعقل هي شئ أساسي في الدين الإسلامي، فالقرآن الكريم يخاطب العقل ويبنى الإيمان على نظر العقل وأدلته، وفيه نجد العقائد كلها موضوع . بحث وسؤال وبيان بالبرهان أمام العقل السليم[٣].

يقول الله تعالى في محكم آياته.

- ﴿فأتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون﴾ (سورة المائدة، الأية ١٠٠)
- ﴿إن في ذلك لذكرى لأولى الالباب﴾ (سورة الروم، الأية ٢١)
- ﴿كذلك نفصل الايات لقوم يعقلون﴾ (سورة الروم، الأية ٢٨)
- ﴿فاسالوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون﴾ (سورة النحل، الأية ٤٣)

ويدعوا الخطاب الإسلامى الناس إلى التفكير والتأمل في الكون وخبايا الأرض وأسرار الحياة وقوانينها، والتطلع إلى الوجود وحقيقته[٤].

---

(١) المرجع السابق، ص ١٤.

(٢) مصطفى إبراهيم الزلمي، الصلة بين المنقول والمعقول في المنطق الإسلامي، (مقال ضمن كتاب: مكانة العقل في الفكر الغربى)، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٩٨، ص ٢٦.

(٣) محمد الهادي أبو ريده، العقل عند الغزالي، (مقال ضمن مجلة العربي ، العدد ٢٤٩)، الكويت ١٩٧٩، ص ٣٤.

(٤) الحارث بن أسد المحاسبي، العقل وفهم القرآن، تحقيق وتقديم: حسين القوتلي، دار الكندي، الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٨٣، ص ١١٦-١٢٠ .

قال تعالى: ﴿وهو الذي مدَ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين إثنين يغشى الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفي الأرض قطع متجاورات وحبات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماءٍ واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ (سورة الرعد: الآية ٣ ، ٤).

ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت﴾ (سورة الغاشية ، الآية ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠).

وكذلك قوله تعالى: ﴿إن في خلق السموات والأرض وإختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماءٍ فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل ذابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ (سورة البقرة ، الآية ١٦٤).

وقوله تعالى أيضاً: ﴿أولم يرى الذين كفروا إن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شئ حى أفلا يؤمنون﴾ (سورة الأنبياء ، الآية ٣٠)

ومن خلال ما قدمناه من أدلة من كتاب الله الحكيم ترشد الإنسان إلى التفكير في الكون، فبهذا ينطلق العقل البشري باحثاً متطلعاً مما يؤدي إلى الوصول به إلى أدق الحقائق وفي الوقوف على نظام هذا الكون وما أبدعه الله سبحانه وتعالى فيه من موجودات متعددة ومتباينة ومعقدة[١] فالقرآن الكريم – إذن – يلفت أصحاب العقول الراجحة، وذوي القلوب المؤمنة، إلى المنهج الصحيح، في النظر إلى آيات الله الداعية إلى تحقيق الإبداع العلمي في مجالات المعرفة وتطبيقاتها[٢].

و انطلاقاً مما سبق ، فإن جذر كلمة عقل الذي يعني الشد أو الربط أو الإمساك، يعنى أيضاً – ومن خلال الآيات القرآنية العديدة التي تدعو للتأمل وإقامة علاقة وثيقة مع ما هو موجود. وهو بذلك يوحي بأن للفكر البشري تأثيراً على الواقع[٣] وبالتالي فالعقل الإسلامي يعني تقريباً نفس مدلول العقل حالياً[٤]. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، فإننا نجد في كتب الأديان الأخرى إشارات صريحة أو مضمونة إلى العقل أو التميز، ولكنها تأتي عرضاً غير مقصودة. وقد يلمح فيها القارئ بعض الأحيان شيئاً من التحذير من العقل، ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية، بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة، وتتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله أو يلازم فيها المفكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه[٥].

---

(١) قدري حافظ طوقان، مقام العقل عند العرب، دار المعارف، مصر ١٩٦٠م ، ص ٢٦.

(٢) أحمد فؤاد باشا، الإسلام والعولمة، دار الجمهورية للصحافة، القاهرة ٢٠٠٠م، ص ٣١ .

(٣) محمد أركون، الفكر الإسلامي، قراءة علمية، ترجمة: هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، بيروت – الدار البيضاء ١٩٩٦، ص ٢١٤.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٣٥.

(٥) أحمد عبيد الكبيسي، العقل والقرآن، (مقال ضمن كتاب: مكانة العقل في الفكر العربى).

ومن خلال ما تقدم فإن الدين الإسلامي نموذج غير مسبوق للدين المؤسس على العقل الدين الذي يعلى سلطان العقل ويزهو، لا بنصوصه الشريفة ومأثوراته المقدسة فقط، وإنما بالعقلانية التي أصبحت للمرة الأولى درعاً للدين وقسمة تمتزج بعقائده وأصوله[١].

ولهذا فقد تنشأ الاتجاه العقلى فى الإسلام – كغيره من الاتجاهات الفكرية الأخرى – من بين رواد الحركة الثقافية الدينية العامة – أي من بين الفقهاء – الذين اعتمدوا على العقل والقياس للتفهم والاستنباط في الأمور الشرعية[٢]. فمن المؤكد أن الفقهاء قد ساهموا فى تشكيل قطاعات محددة من العقلانية. في أزمنة وأوساط اجتماعية ثقافية تسيطر عليها العقائد الدينية[٣]. وهذا هو الشئ الذي يفسر لنا سبب تفوق العقل الدينى وأغلبيته من الناحية الاجتماعية والعددية، هذه الأغلبية التى كثيراً ما يخلط بينها وبين التفوق المعرفي والإبستمولوجى. ذلك لأن العقل الديني قد انتقى لذاته العناصر التكوينية للدين الإسلامى فى الوقت الذي خضع فيه للعوامل والقوى المحلية ، فإنه قد مد من سلطته وفعالية وآليات عمله حتى يومنا هذا على الجميع بدءاً من النخبة المثقفة وانتهاءً بالطبقات الشعبية التي بقيت مخلصة للتراث الديني الشفهى فقط[٤].

ومعنى ذلك أن الدين الإسلامي قد حدد معيارى العقلانية الممكنة للإنسان قبل أن تصل إليها الفلسفة: شروط الاجتهاد العقلية والخلقية من حيث هو فعل عقلى يقوم به الفرد وشروط صلاحيته الخلقية والجماعية؛ أى احترام الشروط والمعايير التى تحددها الجماعة، سواء بصورة مختصة فى الاجتهاد المختص أو بصورة عامة فى الاجتهاد المتعلق بالشأن العام[٥].

ويقوم العقل بإدراك نفسه أولاً، ثم يدرك الحقائق والقواعد المنطقية، ويحدد الخير والشر والحق والباطل، لذلك فهو عقل عملي فعال، ثم يدرك العالم الخارجي من المحسوسات، وذلك بواسطة الحواس التي تشكل أحد أعوانه، ثم يدرك "اللا مرئى" من المشاعر والاحاسيس والمعاني الباطنية عبر القلب.

وإذا نظرنا إلى الموضوع من زاوية ثانية، نرى أن افعال الانسان معلولة ومسببة عن هذه المركزية العقلية، فكل ما يصدر عنها سوف يتأثر بها إن المتأمل ملياً في هذه الآيات المباركة، يمنحنا وعياً بنوع النظرة القرآنية للعقل. قال تعالى {ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون} (سورة البقرة الآية ١٧١).

وقوله تعالى { ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون } (سورة يونس، الآية ٤٢).

---

(١) جورج طرابيش، مذبحة التراث في الثقافة العربية المعاصرة، دار الساقي، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٣م، ص ٣٠، ٣١ .

(٢) طوقان، مقام العقل، ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٣) محمد اركون، تاريخية الفكر العربي الإسلامى، ترجمة: هاشم صالح، مركز الانماء العربى، المركز الثقافي العربى، الطبعة الثانية، بيروت – الدار البيضاء ، ١٩٩٦م ص : ٨١ .

(٤) المرجع السابق، ص ٩٦ ، ٩٧

(٥) أبو يعرب المرزوقي، العقلانية والفكر الإسلامى، (مقال ضمن مجلة الوعي المعاصر)، العدد ٦ ، ٧، دمشق ٢٠٠١، ص ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٨ .

وفي آية أخرى يقول تعالى: {أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور} (سورة الحج الآية ٤٦).

ويقول تعالى أيضاً {لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون} (سورة الحشر الآية ١٤).

ومن خلال هذه الآيات الكريمة، نجد أن الآية الأولى قد بينت التشبيه، وبيان الحقيقة، فى أن الذين كفروا بأنهم كمن ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، ثم عقبت بالحكم عليهم بأنهم صم بكم عمي، فهم كمسلوب الحواس الرئيسية الثلاث، ثم رتبت النتيجة على ذلك بأنهم غير عاقلين، فهم مسلوبوا العقل بسبب عدم سمعهم وخرسهم وعماهم.

وهذا التصور يوضح لنا أن نظرة القرآن الكريم للعقل ترى فيه المركزية القابعة في الوسط كما أن الآية الأخيرة توضح أن السبب في تشتت قلوبهم وتفرقهم هو عدم عقلانيتهم، فهي تبرز تأثير العقل على فعل الإنسان وواقعة. وعلى ضوء ما تقدم نستطيع القول: أن القرآن الكريم قد أولى اهتماماً كبيراً لبيان حقيقة العقل ومراتبه وكيفية تأثره وتأثيره، ولكن عبر اهتمامه بالعقل العملي، وهو العقل القابل للتطور والترقى، الذي يؤدي إلى إدراك الحق الواجب أتباعه، وإدراك الباطل اللازم اجتنابه، فالعقل في القرآن يمثل الجانب التطبيقي في الوعي الإنساني، وهذا لا يعني إهمال العقل بوصفة مملكة للتفكير، كما لا يعني إهمال المدركات الأولية للعقل، كيف ذلك والقرآن من خلال محاجته مع الكفار والمنافقين وجميع البشر إنما يرتكز على العقل بوصفه آله إدراكية عامة يشترك فيها الجميع وتكون حجة على الناس بلا تفاوت .

والقرآن الكريم عالج جوانب كثيرة من أبرزها[١]:

أ – أهمية العقل، حيث امتدح العقلنة والفهم والتفكير، ثم بين علامات العقلانية عند الإنسان.

ب – يوضح مخاطر السفه وعدم الفهم، وذم الجهل والجهلاء.

ج – يبين الآثار الناجمة عن عدم العقلانية من خلال بيانات تركها.

د – يبين القرآن الكريم أيضاً ضرورة الاعتماد على العلم والمعرفة بالدليل في المساحة المعرفية للإنسان، فيوضح مخاطر متابعة الظن والشك لأنهما يبعدان الإنسان عن الحق والواقع.

هـ – كما يعرج على مراتب العقلانية ليشرح الأسباب التى تقوى العقل وتربية وتعضده سواء من داخل الإنسان أم من خارجه، وفي ذلك يؤكد القرآن على تهذيب النفس، ويبين من ثم وجود حلقة ثلاثية تربط العقل والنفس والعمل، ليصير كل منها مؤثراً على الآخر ليجمع بذلك المنطق القرآني بين البرهان والوجدان.

واهتم القرآن الكريم ببيان طرق العقل وكيفية تحقيقه عملياً، وذلك من خلال توجيهه وهدايته إلى كمال رشده، فقد حدد المؤثرات الداخلية[٢] ضمن التكوين الذاتي للإنسان سواء فيها غلبة الحس أم الخيال أم الاعتبار والتساهل

---

(١) نصر حامد أبو زيد، الاتجاه العقلي في التفسير، دار التنوير، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٢، ص ٦٧.

(٢) محمد المصباحي، من المعرفة إلى العقل، دار الطليعة، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٠، ص ٥.

العلمي، وكذلك تأثير النفس على العقل العملي وسائر الطبائع والملكات، كما بين العديد من المحرمات والمهلكات التي توجب بعد الإنسان عن العقلانية الواقعية، سواء الظاهرية أم الباطنية فقد بين القرآن الكريم أن العقلنة والفهم متوقفان على العمل بوصفه شرطاً أساسياً، قال تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) (سورة العنكبوت، الآية ٤٣).

وكذلك قوله تعالى: (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور) (سورة الحج الآية ٤٦).

كما يبين لنا القرآن الكريم تأثير العقلانية على الخارج في حركة تفاعلية من الداخل إلى الخارج في قوله تعالى (وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) (سورة المائدة ، الاية ٥٨).

وقد ركز القرآن الكريم أيضاً على عنصر اتكال الناس على أمور خارجية رأي فيها أضعافاً للعقل ، ولذلك ذمها، كما في قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون) (سورة المائدة ، ١٠٥).

وغير ذلك من تنبيه العقل بأن عليك أن تعمل طبقاً للدليل والعلم من دون التأثر بغيرك.

وقد بين القرآن الكريم الأسباب التي تقوى العقل وتربيه وتعضه، سواء من داخل الإنسان أم من خارجه ، فهناك العديد من الآيات القرآنية التي تولت تفعيل حركة التعقل لدى الإنسان، وذلك بتسهيل الطريق أمامه وفتح أفاق المعرفة والتذكير بعواقب الأمور، فمن ذلك قوله تعالى: (كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون) (سورة البقرة الآية ٢٤٢).

إن ما حدث من تطور سياسي واجتماعي في العالم الإسلامى، أدى فيما بعد إلى نكوص تلك العقلانية لفترة طويلة من الزمان – ابتداءً من استيلاء المغول على بغداد سنة ٦٥٦ هجرية/ ١٢٥٨ ميلادية، حيث لم تستأنف مسيرتها ولأسباب متعددة إلا بعد ذلك التاريخ لفترة طويلة امتدت حتى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى[١]. فلو رصدنا لحظات التاريخ الإسلامي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لوجدنا اتجاهاً عقلانياً يرتبط بالإصلاح أو التنوير في فكرنا العربي الإسلامى[٢]. فالثورة الفكرية التي ارتبطت بالإصلاح أو التنوير في العالم العربي، والتي كانت تهدف إلى تحديد كل جوانب الحياة، كانت تجعل الدين أحد المحاور الأساسية نظراً للدور الذي يقوم به في المجتمع العربي الإسلامي وقد كان الهدف من الآراء التي تدعو إلى التجديد في فكرنا الإسلامى، هو مناقشة الأفكار السائدة وتنقيتها في المجتمع، والتي لم تكن تتفق في كثير من الأحيان مع جوهر الدين.

فالهدف إذن، هو تخليص العقل من الجمود في نظرته إلى الدين[٣].

---

(١) حامد خليل، الحوار والصدام في الثقافة العربية المعاصرة، دار المدى، ط ١، سوريا ٢٠٠١، ص ١٦٠.

(٢) محمد عاطف العراقى، الفلسفة العربية (مدخل جديد)، الشركة المصرية للنشر (لونجمان)، الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠٠١، ص ٢٣٤.

(٣) أحمد أبو زيد، التنوير في العالم العربى، (مقال ضمن مجلة عالم الفكر، العدد ٣، المجلد ٢٩)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ٢٠٠١، ص ٤٢.

ثانياً: آراء بعض فلاسفة الإسلام في العقل والعقلانية

ولنبدأ أولاً: بـ . رفاعة بك رافع الطهطهاوى (١٢١٦-١٢٩٠هـ/١٨٠١-١٨٧٣). والذي يمثل علامة تفصل بين عهدين : عهد الوقوف عند التراث القديم لمجرد أنه تراث، وعهد يدعو إلى الاستفادة من الحضارة الأوروبية وكيف نمزج بين خصائص كل عهد منهما، أو بين معالم كل ثقافة منهما، فإن ما أثير من قضايا حول هذا المجال، يمكن أن يمثل لنا بعداً عقلياً في فكرنا العربي الإسلامي بما يشمله من آداب وعلوم وفنون[١] هذا من جانب ومن جانب آخر فقد كان الطهطهاوي يبدي إعجابه وإيمانه بالمنهج العقلي ودوره في إرساء قواعد المجتمع وبخاصة التنظيم السياسي على ما يقول هو نفسه في كتابهِ: (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) من أن الباريزيين يختصوا من بين كثير من النصارى بذكاء العقل ودقة الفهم وغوص ذهنهم في العويصات، ويحبون دائماً معرفة أصل الشئ والاستدلال عليه[٢].

كما أنهم كانو " ينكرون خوارق العادات، ويعتقدون أنه لايمكن تخلف الأمور الطبيعية أصلاً، وأن الأديان إنما جاءت لتدل الإنسان على فعل الخير وترك وإجتناب فعل الشر، وبأن عمارة البلاد وتطرق الناس وتقدمهم في الآداب تسد مسد الأديان، وأن الممالك العامرة تصنع فيها الأمور السياسية كالأمور الشرعية[٣].

ويرى الطهطهاوي أيضاً بأن قواعد فرنسا وقوانينها تكشف عن قدرة العقول على الوصول إلى الحقائق وإلى العدل والانصاف، التي هي أهم أسباب تعمير الممالك وراحة العباد. فهذا نوع من الميل الواضح من جانب الطهطهاوي نحو العقلانية، خاصة وأن القوانين السائدة في الغرب ليست مأخوذة من الكتب الدينية، وإنما هي من إنتاج العقل البشري وإبداعه أو مستمدة من أعمال وقوانين وتشريعات أخرى وضعها البشر أنفسهم[٤].

وفي هذا يقول الطهطهاوى: (والقانون الذي يمشي عليه الفرنساوية الآن ويتخذونه أساساً لسياستهم، هو القانون الذي ألفه لهم ملكهم المسمى لويس الثامن عشر ولا زال متبعاً عندهم ومرضياً لهم، وفيه أمور لا ينكر دووا العقول أنها من باب العدل. والكتاب المذكور الذي فيه هذا القانون يسمى الشرطة ،...

وإن كان غالب ما فيه ليس كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لتعرف كيف قد حكمت عقولهم بأن العدل والإنصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وكيف انقادت الحكام والرعايا لذلك حتى عمرت بلادهم ، وكثرت معارفهم وتراكم غناها ، وارتاحت قلوبهم ، فلا تسمع فيهم من يشكو ظلماً أبداً ، والعدل أساس العمران[٥].

ولمن لا يعرف الطهطهاوى. نقول بأنه هو الشخصية الرئيسية الأولى في النهضة الفكرية، حيث مهد الطريق لتداخل الثقافتين العربية والإسلامية من جهة والغربية من جهة أخرى في حياتنا الحديثة والمعاصرة فقد تمكن خلال

---

(١) محمد العراقى، الفلسفة العربية (مدخل جديد)، ص ٢٣٦.

(٢) رفاعة رافع الطهطاوى، تخليص الابريز في تلخيص باريز، تقديم: مصطفى نبيل، دار الهلال، القاهرة ٢٠٠١، ص ٧٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٨١.

(٤) أحمد أبو زيد، التنوير في العالم العربي، ص ٤٥.

(٥) الطهطهاوى، تخليص الابريز، ص ١٠٠.

السنوات الخمس أو الست التي قضاها في باريس بين سنتى (١٨٢٦-١٨٣١م)، يلم بأساسيات الثقافية الغربية، فمزج بين ثقافته المستخدمة وثقافته الأولى في صيغة جديدة وفي كل موحد يذكرنا بما فعله العرب عندما نهلوا من ثقافة اليونان وغيرها. وعند عودته من باريس أظهر الطهطاوي براعة فائقة في التوفيق بين الثقافتين العربية الإسلامية والغربية، ولم يعبأ بالتعارض الظاهري بين الثقافتين صارفاً جهده إلى الأسس المشتركة، مكتشفاً أن هاتين الثقافتين تتم أحدها بالأخرى[١].

وننتقل بعد الطهطاوى إلى شخصية إسلامية أخرى وهو: جمال الدين الحسينى الأفغانى (١٢٥٤ – ١٣١٤هـ ١٨٣٨م – ١٨٩٧م) والذى يعده الكثير الباعث الرئيسى الأول للروح العصرية فى الإسلام[٢] فقد عرف عنه بعدم التقليد من غير تمحيص، فكان يأخذ بالأحسن من الأقوال ويرد الضعيف منها، ويجتهد للاستنباط للأولى، ويتناول الأقرب للصواب وما يقبله العقل[٣]. لذلك ينادى دائماً بضرورة الإعلاء من شأن العقل في مواجهة الدعوة إلى (إغلاق باب الاجتهاد).

لذلك يسأل الأفغانى: هل يجب الجمود والوقوف عند أقوال أناس (هم أنفسهم لم يقفوا عند حد أقوالهم) قد أطلقوا لعقولهم سراحه فاستنبطوا وقالوا، وأدلوا دلوهم في الدلاء في ذلك البحر المحيط من العلم، وأتوا بما ناسب زمانهم وتقارب مع عقولهم، وتتبدل الأحكام بتبدل الزمان، ثم ما معنى باب الاجتهاد مسدود؟ وبأى نص سد باب الاجتهاد؟ أو أى إمام قال لا ينبغى لأحد من المسلمين بعدى أن يجتهد ليتفقه بالدين؟ أو أن يهتدي بهدي القرآن وصحيح الحديث، أو أن يجتهد لتوسيع مفهومه منهما، والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية، وحاجيات الزمان وأحكامه؟ ولا ينافي جوهر النص[٤].

ويؤكد الأفغانى: إن الله بعث محمداً رسولاً بلسان قومه العربي ليفهمهم ما يريد إفهامهم، وليفهموا منه ما يقوله لهم ... والقرآن ما أنزل إلا ليفهم ولكن يعمل الإنسان بعقله لتدبر معانيه وفهم أحكامه والمراد منها فمن كان عالماً باللسان العربى، وعاقلاً غير مجنون وعارفاً بسيرة السلف وما كان من طرق الإجماع، وما كان من الأحكام مطبقاً على النص مباشرة، أو على وجه القياس، وصحيح الحديث، جاز له النظر في أحكام القرآن، وتمنعها، والتدقيق فيها واستنباط الأحكام منها ومن صحيح الحديث والقياس[٥].

كما يؤكد لنا الأفغاني أنه لايرتاب في أنه لو فسح في أجل أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وإبن حنبل وعاشوا إلى اليوم – لداموا مجدين، مجتهدين يستنبطون لكل قضية حكماً من القرآن والحديث وكلما زاد تعمقهم وتمعنهم ازدادوا فهماً وتدقيقاً. فقد اجتهدوا وأحسنوا ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن، أو تمكنوا من

---

(١) معن زيادة، الفلسفة العربية الحديثة والمعاصرة بين الابداع والاتباع، (مقال ضمن مجلة الفكر العربى، العدد ٥٧)، معهد الانماء العربي، بيروت ١٩٨٩، ص ١٥.

(٢) محمود أبو رية، جمال الدين الافغاني، دار المعارف، مصر ١٩٦١، ص ٤٩.

(٣) محمد باشا المخزومى، خاطرات جمال الدين الافغاني، بيروت ١٩٣١، ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

(٤) المرجع السابق، ص ١٧٧– ١٨٧.؛ جمال الدين الافغانى، الأعمال الكاملة، تحقيق: محمد عمارة، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٨٦، ص ٣٢٩.

(٥) المرجع السابق، ص ١٧٨، وأيضاً الاعمال الكاملة، ص ٣٣٠.

تدوينها في كتبهم. والحقيقة انهم مع ما وصلنا من علمهم الباهر وتحقيقهم واجتهادهم، إن هو بالنسبة إلى ما حواه القرآن من العلوم، والحديث الصحيح من السنن، والتوضيح إلا كقطرة من بحر أو ثانية من دهر[١].

كما يدعو الأفغاني إلى العمل على تحرير الفكر الإسلامي من القيود التي تحد من إنطلاقة مع العمل على إثراء العقل بالمنطق والعلم[٢]، فالحكم – إذن – للعقل والعلم[٣].

ولذلك يطالب الأفغاني بتحرير العقل من الخرافات والأوهام، وتوجيه النفوس وجهة الشرف والطموح، ودعم العقائد الدينية بالأدلة والبراهين وتهذب الأفراد وتأدبهم[٤].

ويقول الأفغاني إن: (قيد الأغلال أهون من قيد العقول بالأوهام، وإن العقل اشرف مخلوق، فهو عالم الصنع والإبداع، ولا معطل له إلا الوهم، ولا يعقده عند عمله إلا الجبن، وهو الذى يخيل المفقود موجوداً والقريب بعيداً وكل عناصر الوجود في هذا العالم الفاني خاضعة للعقل المطلق الإنساني، فكل مستحيل اليوم في الطب والصناعة سوف يكون هذا ممكناً)[٥].

ثم يقوم الأفغاني بترتيب العقل على قدر علو الإنسان في الكون، فيقول: (إن الإنسان من أكبر أسرار هذا الكون، ولسوف يستجلى بعقله ما غمض وخفى من أسرار الطبيعة، وسوف يصل بالعلم وبإطلاق سراج العقل إلى تصديق تصوراته، فيرى ما كان من التصورات مستحيلاً قد صار ممكناً وما صوره جموده، وتوقف عقله بأن خيال قد أصبح حقيقة)[٦].

وأخيراً فإن الأفغاني يعتقد بأنه لايوجد خلاف بين ماجاء به القرآن وبين الحقائق العلمية، أما إذا برز خلاف ما، فذلك دلالة على عجز في تفسير الآيات القرآنية. ويقترح الأفغاني لذلك حل لهذا الأشكال بالإعتماد على التأويل[٧]. التأويل[٧]. يقول الأفغاني "أثبت العلم كروية الأرض ودورانها، وثبات الشمس دائرة على محورها – فهذه الحقيقة مع مع ما يشابهها من الحقائق العلمية لابد من أن تتوافق مع القرآن. والقرآن يجب أن يجل عن مخالفته للعلم الحقيقي، خصوصاً في الكليات، فإذا لم نر في القرآن ما يوافق صريح العلم، والكليات – اكتفينا بما جاء فيه من الإشارة ورجعنا إلى التأويل[٨] فلذلك يذهب الأفغاني إلى ضرورة إطلاع المسلمين على التيارات الفكرية الحديثة، وقبول ما

---

(١) المرجع السابق، ص ١٧٨ ، ١٧٩.

(٢) أحمد أبوزيد، التنوير فى العالم العربى، ص ٣٩ .

(٣) محمد المخزومى، خاطرات جمال الدين الافغانى، ص ٩٥.

(٤) على المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة (١٧٩٨-١٩١٤)، دار الأهلية للنشرو والتوزيع، بيروت ١٩٧٥، ص ٧٣.

(٥) الافغانى، الأعمال الكاملة، ص ٣٢٤.

(٦) المصدر السابق، ص ٢٦٥؛ محمد عمارة: نظرة جديدة إلى التراث، دار قتيبة، الطبعة الثانية ١٩٨٨، ص ٦٥.

(٧) علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية، ص ٧٤ ، ٧٥.

(٨) محمد المخزومى، خاطرات جمال الدين الافغانى، ص ١٦١.

يتفق والشريعة الإسلامية ويفيد المسلمين في حياتهم. وإلى رفض ما يتعارض وعقيدتهم، ورفضه بالحجج العقلية والبراهين المنطقية[١].

وقد بلغت النزعة العقلية أوج قوتها عند الشيخ محمد عبده (١٢٦٦-١٣٢٣هـ = ١٨٤٩-١٩٠٥م)، حيث يقرر في رسالة التوحيد: (إن من قضايا الدين مالا يمكن الإعتقاد به إلا عن طريق العقل، كالعلم بوجود الله وبقدرته على إرسال الرسل وعلمه به إليهم وإدارتهم لاختصاهم برسالته ويتبع ما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة وكالتصديق بالرسالة نفسها، كما أجمعوا على أن الدين إن جاء بشئ قد يعلو على الفهم، فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند العقل[٢]. كما يقرر أن القرآن الكريم لم يرد فيه سوى مبادئ عامة، تاركاً للعقل امر تطبيقها على قضاياً المجتمع. وبما أن هذه القضايا في تغيير مستمر بفعل الحركة التي تحكم العالم ، توجب – إذن – تغيير تطبيق المبادئ ولتتلاءم مع ما ينفع الإنسانية في كل زمان[٣].

ولذلك يؤكد محمد عبده أن الدين الإسلامي من أكثر الأديان إن لم يكن الدين الوحيد الذي إستند إلى العقل واقام الحجج والبراهين القاطعة في كثير من المسائل الإلهية، فيقول: (علم تقرير العقائد – وبيان ما جاء في النبوات – كان معروفاً عند الامم قبل الإسلام ؛ ففي كل أمة كان القائمون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييده، وكان البيان من أول وسائلهم إلى ذلك لكنهم كانوا قلما ينجون في بيانهم نحو الدليل العقلي وبناء آرائهم .

وعقائدهم على ما في طبيعة الوجود أو ما يشتمل عليه نظام الكون ....، وجاء القرآن الكريم فنهج بالدين منهجاً لم يكن عليه ما سبقه من الكتب المقدسة، منهجاً يمكن لأهل الزمن الذى أنزل فيه ولمن يأتى بعدهم ان يقوموا عليه ... فأقام الدعوى ... وخاطب العقل، واستنهض الفكر ، وعرض نظام الأكوان وما فيها من الأحكام والإتقان على أنظار العقول وطالبها بالإمعان فيها، لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما أدعاه ودعاء إليه[٤].

فالإسلام في هذه الدعوة والمطالبة بالإيمان بالله ووحدانية لا يعتمد على شئ سوى الدليل العقلى، والفكر الإنساني الذى يجرى على نظامه الفطرى، وهو ما يسمى بالنظام الطبيعى[٥].

---

(١) علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية، ص ٧٦.

(٢) الشيخ محمد عبده، رسالة التوحيد، مطابع دار الشعب، القاهرة ١٩٧٠، ص ١٠.

(٣) عطية سليمان هودة أبو عاذره، مشكلتنا الوجود والمعرفة في الفكر الإسلامي الحديث، دار الحداثة، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٥، ص ٢٤٩-٢٥٠.

(٤) محمد عبده، رسالة التوحيد، ص ٩.

(٥) محمد عبده، الإسلام دين العلم والمدينة، عرض وتعليق وتحقيق: طاهر الطناحي المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ١٩٦٤، ١٩٦٤، ص ٩٦.

وفي ضوء هذه الدعوة يجعل محمد عبده العقل معياراً في الشئون الدينية، وهو يسرد ما عده أصولاً يبنى عليها الإسلام[١] إذ يشير إلى ضرورة النظر العقلي لتحصيل الإيمان الصحيح، وتقديم العقل على ظاهرة الشرع عند التعارض والإعتبار بسنن الله في الخلق[٢].

ويقول محمد عبده ويؤكد بأن الإسلام لا يعوق التقدم، ولا يتنافى مع العلم ولا يتعارض مع المدنية[٣]، فالشرع لا غنى له عن العقل، وليس هناك تعارضاً بين العلم والدين مادام كل منهما يعتمد على العقل في تحديد أغراضه ومن ثم فإنه يتوجب علينا التوفيق بينهما[٤]، وذلك لأن العقل وحده لا يستقل بالوصول إلى مافيه سعادة الأمم بدون مرشد إلهي .

وإذا كان محمد عبده يتمسك بالعقل في دعوته لتجديد الفكر الإسلامي [٥]، فإنه يقر بقيمة الشك – أو النقد – من من وجهة النظر العلمية . لذلك يشير إلى ضرورة المداومة على مراجعة النظريات العلمية وتحسينها[٦] وأخيراً فإن ما فعله محمد عبده لم يكن صرخة في وادٍ، فعلماء الدين الذين لبوا نداءه كانوا كثيرين . منهم من دعا إلى تطهير العقيدة مما علق بها من شوائب، ومنهم من دعا إلى نشر العلم الصحيح ومنهم من سار على طريقة الإمام في تفسير الآيات القرآنية تفسيراً موافقاً لروح العلم. حيث أعان ذلك على إحياء هذه النزعة العقلية ، بإضافة تدريس الفلسفة والعلوم العصرية على مناهج الأزهر الشريف واتجاه عدد كبير من علماء الدين إلى دراسة تراثنا الفلسفي، وإقبال عدد آخر على دراسة الفلسفة الأوروبية ، كل ذلك في سبيل التوفيق بين الدين والعلم ، وبين الوحي والعقل[٧].

---

(١) توفيق الطويل، الفكر الديني الإسلامي في العالم العربي إبان المائة عام الأخيرة (مقال ضمن كتاب: الفكر العربي في مائة سنة، بحوث مؤتمر هيئة الدراسات العربية)، الجامعة الأمريكية، بيروت ١٩٦٧م ، ص ٣٢٩ .

(٢) محمد عبده ، الإسلام دين العلم والمدنية ، ص ٩٨-٩٩ .

(٣) محمد عبده ، الإسلام دين العلم والمدنية : ص ١١٨-١٣٠ .

(٤) شكرى نجار، النهضة الفلسفية في العالم العربي الحديث، (مقال ضمن مجلة الفكر العربي، العدد ٤١)، معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٨٦، ص ١٢١.

(٥) محمد عبده، رسالة التوحيد ، ص ١٠٤.

(٦) عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده، مكتبة الانجلو المصرية، ط ٢ ، القاهرة، ص ٩٥-١٧٩ .

(٧) شكري نجار، النهضة الفلسفية ، ص ١٢١.

الخلاصة والنتائج:

١ – في ظل هذه الدعوة العقلانية ناهض هؤلاء المحدثون من رواد الإصلاح الديني استبداد الحكام .

٢ – دعوا إلى مشورة أهل الحل والعقد تمشياً مع تعاليم الإسلام وتصدوا لمحاربة النفوذ التركي ومقاومة فساده ، فعلى سبيل المثال فقد أعلن جمال الدين الافغاني الجهاد المقدس على الاستعمار الأوربي لا سيما الانجليزي ، الذي كان قد احتل بعض البلاد الإسلامية في عصره[١]. [٥١] .

٣ – الإصلاح والتنوير في العالم العربي هو تعبير عن شعور بالتمرد والثورة والرفض للواقع القائم والرغبة في تغيير الواقع وتعديله هذا من ناحية ومن ناحية أخرى هو نتيجة ومحصلة الاتصال الثقافي المباشر والمكثف بالغرب ، والتأثر بالقيم الفكرية التي ترتكز عليها الثقافة مع الرغبة في محاكاتها[٢].

٤ – تأثير النزعة العقلانية في دعوة هؤلاء الرواد للاشتراكية ومطالبتهم بتحرير المرأة ، والمامهم بالتزام التسامح والتودد مع غير المسلمين من الناس[٣] وهم بذلك قد سبقوا روح العصر الذي عاشوا فيه ، مما أدى إلى وصفهم بالمجددين[٤].

٥ – وأخيراً يتضح لنا أن الفكر الإسلامي خلال مرحلة النهضة العربية كان يعتمد على العقل اعتماداً كلياً في حل الكثير من القضايا التي طُرحت عليه في المجتمع العربي آنذاك ، وعلى الرغم من ذلك فإنه كان بعيداً عن العقل الكلي كاستراتيجية أو منهجية لذاته .

عمر فرج زوراب

---

(١) توفيق الطويل ، الفكر الديني الإسلامي، ص ٣٢٩.

(٢) أحمد أبو زيد، التنوير في العالم العربي، ص : ٢٧ .

(٣) جمال الدين الافغانى، الأعمال الكاملة، ص ٨٢-٩٢ .

(٤) توفيق الطويل، الفكر الديني الإسلامي، ص ٣٢٩-٣٣٥